الفصل الأول

ابن آدم يقتل أخاه

تمهيد

لم يكن مصادفة أن تقع أول جريمة ـ بعد خروج آدم من الجنة واستقراره فى الأرض ـ بين اثنين من أبنائه ، وأن تكون جريمة قتل بالذات وليس أى جريمة أخرى كالسرقة أو الضرب أو الجرح أو الاغتصاب أو الزنى؛ ذلك لأن الحياة الإنسانية بدأت على هذه الأرض بآدم وحواء اللذين أنجبا أبناء وبنات فكوّنا بذلك أول وحدة اجتماعية يرتبط أفرادها برابطة الدم، وهى التى أصبحت تسمى أسرة، وبما أنها كانت الأسرة الوحيدة على هذه الأرض فإن علاقات أفرادها كانت محدودة بهم، محصورة فيهم، يتعاملون معا، ويأكلون معا، ويعملون معا، وينامون فى نفس المكان، فإذا كان لابد من أن تقع جريمة فإنها ـ حتما ـ ستكون من أحدهم على آخر من بينهم ؛ لعدم وجود من يمكن أن نطلق عليهم وصف الغرباء الذين يحتمل أن يؤدى تعارض المصالح معهم إلى وقوع جريمة ما كالقتل أو الضرب والجرح أو الإتلاف. وقد يتساءل البعض فى تعجب يخالطه الأسى: لماذا تقع الجريمة أصلا بين الإخوة وهم أعضاء فى أسرة واحدة، يرتبطون برابطة الدم بحكم مولدهم لنفس الأبوين ونشأتهم فى كنفهما، مما يفترض معه أن يكونوا قد تعلموا نفس الأشياء، وتعودوا على ذات العادات، وتخلقوا بنفس الأخلاق، فأصبحت لهم نفس النظرة إلى الأمور، ونفس طريقة التفكير، وربما السلوك والمواقف فضلا عن وحدة المصالح، وربما الأهداف أيضا؟! فمن أين يأتى التعارض أو التناقض، أو الخلاف الذى يمكن أن يؤدى إلى وقوع جريمة من أحد أعضاء الأسرة على عضو آخر؟!.

وهذا التساؤل المشوب بالخوف ـ وربما الأسى أيضا ـ الذى ما فتىء الناس

يرددونه فى كل العصور، عاد إلى الظهور فى العقود الثلاثة الأخيرة، بأقوى مما كان فى أى عصر مضى، بعد أن وقعت جرائم قتل بشعة داخل بعض الأسر، قام فيها الأخ بقتل أخيه والابن بقتل أبيه أو أمه أو أخته، هذا غير الجرائم التى قتلت فيها الأم ابنها أو ابنتها، وكذلك الأب الذى قتل ابنه أو ابنته أو قتل زوجته أو قتلته زوجته، مما جعل نسبة جرائم القتل التى تقع داخل الأسرة فى مصر تصل إلى ٦٠٪ من العدد الإجمالى لهذا النوع من الجريمة!

وتختلف أسباب الخوف والأسى بحسب المستوى العلمى لمن يصدر عنهم هذا التساؤل، فالناس العاديون يرجع السبب فى خوفهم ـ من تفاقم الظاهرة ـ إلى أنهم بحكم كونهم أعضاء فى أسر كانوا يعتقدون بأنها المؤسسة الاجتماعية الأولى التى تكفل لهم الطمأنينة وتوفر لهم الأمن، يلوذون بها عندما تحدق بهم الأخطار، ويستعينون بها على درء الأضرار. ولكن هذا الاعتقاد هزته الجرائم البشعة التى وقعت داخل بعض الأسر، وجعلته هدفا لشك حقيقى انعكس ـ فى كثير من الأحيان ـ لا على شعور وإحساس أفراد الأسرة نحو بعضهم البعض، بل وعلى مواقفهم من بعضهم، وسلوكهم مع بعضهم. وهكذا حل الخوف محل الثقة، والشك والقلق محل الطمأنينة والأمن، وأصبحت مهمة المدافعين عن الأسرة ـ الذين يعتقدون أنها لا تزال بخير ـ صعبة للغاية ، أما الأمثلة الحقيقية التى يسوقها الخائفون والمتشائمون، وهى الأمثلة التى يضاف إليها كل يوم الجديد والأكثر إثارة وبشاعة، فالخوف عند هذا الفريق يعبر عن موقف شخصى أو حالة فردية!

أما الفريق الثانى، ويتكون من العلماء والمتخصصين والمهتمين بظاهرة الجريمة بصفة عامة، وبهذه الظاهرة بصفة خاصة، فإن خوفهم ـ فى الغالب ـ ليس على الأسرة التى تعتبر اللبنة الأولى فى المجتمع، وإنما خوفهم على المجتمع ذاته بالنظر إلى ما تحدثه الظاهرة من آثار خطيرة من شأنها أن تصيبه بأفدح الأضرار؛ لذلك فإن هذا الفريق ينظر إلى ظاهرة العنف فى الأسرة فى سياقها الاجتماعى،

وفى علاقتها بغيرها من الظواهر الاجتماعية، وتفاعلها مع عوامل مختلفة: اقتصادية وسياسية وثقافية.

ومع ذلك، فإن هذا الفريق ـ شأنه شأن الفريق الأول ـ غاب عنه ـ وهو يتصدى لدراسة هذه الظاهرة ـ إدراك المغزى الحقيقى لوقوع أول جريمة قتل من أخ على أخيه، كما فاته إدراك الحكمة التى من أجلها ساق الله تعالى قصة هذه الجريمة فى كل من التوراة والقرآن، ومن ثم ظل الفريقان أسيرين لاعتقاد غير صحيح بأن علاقة الدم التى تربط بين الإخوة كافية بذاتها لمنع وقوع اعتداءات من بعضهم على بعض، ونسوا جميعا ـ فى غمرة الدهشة التى اعترتهم وتعتريهم عقب وقوع جرائم من أحد أفراد الأسرة على فرد آخر منها ـ أن الأسرة فى كثير من الأحوال تكون البيئة المناسبة جدا لوقوع كثير من الجرائم التى يرتكبها أعضاؤها ضد بعضهم البعض. ولم يكن من قبيل الصدفة أن ما يزيد على نصف الجرائم وأفعال العنف التى وردت بالقرآن الكريم كانت بين أعضاء فى أسرة واحدة، ففضلا عن جريمة قتل أحد ابنى آدم لأخيه توجد جريمة شروع أبناء يعقوب ـ عليه السلام ـ فى قتل أخيهم يوسف، وهى التى سنتناولها بالدراسة فى الفصل الثانى من هذا الكتاب، وهناك أيضا أفعال عنف صدرت من أخ ضد أخيه كتعنيف موسى ـ عليه السلام ـ لأخيه هارون وجذبه له من لحيته، وتهديد آزر لابنه إبراهيم ـ عليه السلام ـ برجمه. وعصيان أحد أبناء نوح له، بالإضافة إلى ما صدر عن بعض الزوجات ضد أزواجهن من أفعال انطوت على إيذاء، مثل زوجة نوح وزوجة لوط ـ عليهما السلام.

والحكمة من ذكر هذه الأمور فى القرآن الكريم هى تنبيه الناس إلى عدم الركون إلى علاقة الدم وصلة القرابة فى تعاملهم مع أبنائهم وإخوتهم وزوجاتهم، فهى وحدها لا تكفى لضمان الأمن وتوفير الطمأنينة داخل الأسرة وإنما تحتاج إلى جهود مختلفة ـ معنوية ومادية ـ من أجل أن تكون علاقة طيبة نافعة تعود بالخير على جميع الأطراف.

وهناك تحذير للأزواج والآباء ورد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

وقائع الجريمة:

وردت قصة هذه الجريمة فى القرآن الكريم فى سورة المائدة حيث قال تعالى:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ ۖ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَٰسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾(٢)

وكما نلاحظ، فإن القرآن لم يحدد متى وقعت هذه الجريمة ولا مكانها ولا اسْمَي الأخوين اللذين قتل أحدهما الآخر، وذلك على خلاف التوراة(٣) التى وردت فيها القصة وبها بعض التفاصيل على النحو التالى: (وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين. وقالت: اقتنيت رجلا من عند الرب. ثم عادت فولدت أخاه هابيل. وكان هابيل راعيا للغنم، وكان قايين عاملا فى الأرض. وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قربانا للرب، وقدم هابيل أيضا من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه. ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر؛ فاغتاظ قايين جدا وسقط وجهه. فقال الرب لقايين: لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك؟ إن أحسنت فلأرفع وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة، وإليك اشتياقها، وأنت تسود عليها.

(١) سورة التغابن، الآية: ١٤

(٢) سورة المائدة: الآيات من ٢٧ إلى ٣١

(٣) سفر التكوين، الإصحاح الرابع

وكلم قايين هابيل أخاه. وحدث إذ كانا فى الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله. فقال الرب لقايين: أين هابيل أخوك؟ فقال: لا أعلم، أحارس أنا لأخى؟ فقال: ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إلىَّ من الأرض، فالآن ملعون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لاتعود تعطيك قوتها. تائها وهاربا تكون فى الأرض. فقال قايين للرب: دينى أعظم من أن يحتمل. إنك طردتنى اليوم عن وجه الأرض، ومن وجهك أختفى وأكون تائها وهاربا فى الأرض، فيكون كل من وجدنى يقتلنى. فقال له الرب: لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه. وجعل الرب لقايين علامة لكى لايقتله كل من وجده. فخرج قايين من لدن الرب وسكن فى أرض نود شرقى عدن).

ونلاحظ أن القصة كما وردت فى التوراة لم تضف شيئا هاما إلى ما ورد بالقصة القرآنية، فالأسماء ونوع العمل الذى كان يقوم به الأخوان ونوع القربان الذى قدمه كل منهما، والحوار المزعوم بين قايين والرب لاتضيف شيئا ذا بال إلى جوهر القصة، ولا إلى الحكمة التى من أجلها وردت فى القرآن، وهى التنبيه إلى باعث هام من بواعث الجريمة التى تقع بين الإخوة وهو الحسد الذى يبدو واضحا فى الحوار الذى دار بين الأخوين فى القرآن، بخلاف ما جاء فى التوراة من أن قايين كلم أخاه (وكلم قايين أخاه) دون أن يبين لنا ما قاله له وبماذا رد عليه، مما قد يوحى للقارىء أنهما اختلفا فتشاجرا أو تبادلا السباب والشتائم أو الإهانات مما أوغر صدر قايين على هابيل، فأضمر فى نفسه أن يقتل هابيل، فانتهز فرصة وجوده فى الحقل فقتله (وحدث إذ كانا فى الحقل أن قايين قام على أخيه هابيل وقتله).

أما القرآن الكريم فإنه يركز الأضواء على المشهد الذى جمع بين الأخوين، وعلى الحوار الذى تبادلاه بدلا من أن يوجه اهتمام القارىء والمستمع إلى الحدث فى نشأته وتطوره ابتداء من تقديم الأخوين للقربان إلى أن قتل أحدهما الآخر.

ونمضى مع تفاصيل الواقعة وملابساتها فنجد أن الجريمة وقعت من أخ على

أخيه، وعلى الرغم من أن القرآن الكريم لم يذكر اسميهما وذلك على خلاف التوراة التى جاء فيها أن أحدهما ـ وهو القاتل ـ كان اسمه قايين، وأن الآخر ـ وهو المقتول ـ كان اسمه هابيل، فإن المفسرين أبوا إلا أن يسمياهما، فقالوا: إن القاتل كان اسمه قابيل وهو بكر آدم، أما الثانى فهابيل. والاختلاف بينهم وبين التوراة بسيط كما نرى مما يمكن أن نعده دليلا على تأثرهم بالإسرائيليات خاصة.[1] وإنه لم يرد فى السنة عن رسول الله ﷺ شىء فى هذا الصدد، والحديث الوحيد الصحيح الوارد عن هذا الموضوع لم يرد فيه ذكر لاسم ابن آدم الذى قتل أخاه، ففى رواية لابن مسعود[2] قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه كان أول من سن القتل**».

وكما أجمع جمهور المفسرين وعلماء التاريخ على اسمى هذين الأخوين (قابيل وهابيل) فقد أجمعوا أيضا على أنهما كانا ابنين لآدم من صلبه، ولم يخالفهم سوى الحسن الذى قال إنهما من بنى إسرائيل، وإنما وصفهما القرآن الكريم بأنهما ابنا آدم أخذا بالأصل، وهو أن كل البشر هم بنو آدم، ولكن الصحيح هو ما ذهب إليه الجمهور، وهو أن الأخوين كانا ابنين لآدم ـ عليه السلام ـ فلماذا قتل أحدهما الآخر؟! السبب الظاهر للقتل ـ كما ورد فى القرآن ـ هو أنهما قدما قربانا[3] فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر. أى أن الله تعالى تقبل من أحدهما قربانه أو تقريبه القربان؛ لتقواه وإخلاصه فيه وطيب نفسه به،

---

(١) المسعودى: مروج الذهب، المجلد الأول، صفحة ٣٥

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده. وأخرجه الجماعة ـ سوى أبى داود ـ من طرق عن الأعمش.

(٣) القربان: ما يتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح وغيرها، وكانت القرابين عند اليهود أنواعا، منها المحرقات، وهى للتكفير عن الخطايا، وتكون من ذكور البقر والغنم الخالية من العيوب. والذبائح عن الخطايا، سواء كانت عامة أو خاصة. ومنها أيضا ذبائح السلامة، وتكون لشكر الله تعالى، ومنها كذلك ما يسمى بالتقدمات، وتتكون من الدقيق والزيت واللبان، وأخيرا تقدمة الترديد، وتكون من باكورة إنتاج الأرض.

وأما القربان عند النصارى فيطلق على الخبز والخمر اللذين يقدمهما الكاهن إلى المصلين فى الكنيسة لكى يتحول ـ فى اعتقادهم ـ إلى لحم المسيح ودمه حقيقة لامجازا. وعند المسلمين يتمثل القربان فى ذبائح النسك كالأضاحى.

ولم يتقبل من الآخر لعدم التقوى والإخلاص. وأثاب صاحبه عليه[1]. ولم يبين لنا الله تعالى الطريقة التى تم بها تقبل القربان، ولا كيف علم الأخوان أنه تقبل من أحدهما دون الآخر. وللمفسرين من السلف أقوال كثيرة فى هذا الموضوع، فمن قائل: إن نارا كانت تنزل من السماء تأخذ القربان وترتفع به، ومن قائل: إن تلك النار كانت بيضاء وإنها كانت تلتهم القربان[2]. أما رشيد رضا فيرى أنه يحتمل أن يكون الله تعالى قد أوحى لأبيهما آدم بما حدث من تقبل أحد القربانين ورفض الآخر. فهو يشكك فى صحة ما قاله السلف بشأن النار التى كانت تنزل من السماء لترفع القربان أو لتلتهمه قائلا: وهذه أخبار إسرائيلية اختلفت الروايات فيها عن مفسرى السلف، بعضها يوافق ما عند اليهود فى سفر التكوين وبعضها يخالفه. وليس فيها شىء مرفوع إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعول عليه[3].

وليس من شك فى عدم أهمية الطريقة التى جرى بها تقبل قربان أحد الأخوين وعدم تقبل قربان الآخر، والمهم هو أنهما علما بذلك، وهوما كان له التأثير العميق والخطير فى نفس الأخ الذى رفض قربانه.

كذلك لم يبين القرآن الكريم السبب الذى من أجله قدم الأخوان قربانيهما، ولكن المفسرين ـ كعادتهم ـ أبوا إلا أن يبحثوا عن هذا السبب، فمنهم من قال إن تقديم القربانين كان الغرض منه حسم الخلاف الذى نشب بين الأخوين بشأن زواج كل منهما بأخت الآخر. يقول ابن كثير[4]: إنه ورد عن غير واحد من السلف والخلف أن الله تعالى كان قد شرع لآدم ـ عليه السلام ـ أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال، وأنه كان يولد له فى كل بطن ذكر وأنثى، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر. وكانت أخت هابيل دميمة، وأخت قابيل وضيئة، فأراد أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قربانا، فمن

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الجزء السادس، صفحة ٢٨٣
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المجلد الثالث، صفحة ٧٨
(٣) رشيد رضا، المرجع السابق، صفحة ٢٨٣
(٤) المرجع السابق، صفحة ٧٦

تقبل منه فهى له، فقربا، فتقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل، فكان من أمرهما ما كان. وهناك رواية أخرى تقول: إن هابيل كان سيتزوج إحدى الحور العين، بينما يتزوج قابيل امرأة من الجن، فلم يقبل، واتفق على تقديم القربان[1].

وفى رواية للسدى، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ: «أنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما قابيل وهابيل، وكان قابيل صاحب زرع، وكان هابيل صاحب ضرع، وكان قابيل أكبرهما، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه وقال: هى أختى، ولدت معى، وهى أحسن من أختك، وأنا أحق أن أتزوج بها، فأمره أبوه أن يزوجها هابيل، فأبى. وأنهما قربا قربانا إلى الله ـ عز وجل ـ أيهما أحق بالجارية... فلما قربا: قرب هابيل جذعة (من الضأن التى لم تتم سنة من عمرها) سمينة، وقرب قابيل حزمة سنبل، فوجد فيها سنبلة عظيمة، ففركها وأكلها. فنزلت النار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختى.[2] وقيل إن مما فضل قابيل به نفسه على أخيه أنه ـ أى قابيل ـ ولد هو وأخته فى الجنة قبل أن يخرج آدم منها ومعه حواء، بينما ولد هابيل فى الدنيا ومعه أخته التى رفض قابيل أن يتزوجها[3].

وهذا الكلام يناقضه ما ورد بالقرآن الكريم حيث جاء فيه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾[4].

والسوأة: هى عورة الإنسان، أى: جهازه التناسلى. ولرشيد رضا رأى ـ فى تفسير هذه الآية ـ نرجحه على آراء غيره من المفسرين، يقول فيه: «إن شهوة التناسل دبت فيهما بتأثير الأكل من الشجرة، فنبهتهما إلى ما كان خافيا عنهما

(١) الموسوعة الإسلامية الميسرة، المجلد الثانى، صفحة ١٢٢٩

(٢) تفسير الطبرى، المجلد ١٠ صفحة ٢٠٦، ٢٠٧

(٣) الموسوعة الإسلامية الميسرة، المرجع السابق، صفحة ١٢٢٩

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٢

من أمرها فخجلا من ظهورها، وشعرا بالحاجة إلى سترها ـ أى عورتهما ـ وشَرَعَا يخصفان ـ أى يلزقان أو يضعان ويربطان على أبدانهما ـ من ورق أشجار الجنة العريض ما يسترهما. فالمواراة كانت معنوية، فإن كانت حسية فما ثم إلا الشعر ساتر خلقى، وقد تظهر الشهوة ما أخفاه الشعر، وإن لم يسقط بتأثير ذلك الأكل»[1] فكيف تكون حواء قد حملت بقابيل فى الجنة ولم تكن لا هى ولا آدم قد عرفا المعاشرة الجنسية؟!. ولكن هذا ما وجده بعض المفسرين فى الإسرائيليات فنقلوه دون أن يمعنوا النظر فيه، وتلقفه المستشرقون والمبشرون النصارى لكى يسيئوا به إلى الإسلام زاعمين أنه نقل عن الإسرائيليات دون أن يوضحوا من الذى نقل هل هم هذا النفر من المفسرين أم القرآن والسنة؟!

ولكن لابن عباس قول ذهب فيه إلى أنه لم يكن هناك خلاف بين ابنى آدم بشأن زواجهما من أختيهما، وأن ما كان من شأنهما أنه لم يكن يوجد أحد من المساكين ليتصدقوا عليه، وإنما كان القربان يقربه الرجل. فبينا ابنا آدم قاعدان إذ قالا: «لو قربنا قربانا ـ وكان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه الله أرسل إليه نارا فتأكله، وإذا لم يكن رضيه الله خبت النار ـ فقربا قربانا، وكان أحدهما راعيا، وكان الآخر حراثا، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها، وقرب الآخر بعض زرعه، فجاءت النار فنزلت بينهما، فأكلت الشاة وتركت الزرع، وإن ابن آدم قال لأخيه: أتمشى فى الناس وقد علموا أنك قربت قربانا فتقبل منك وردَّ علىَّ؟ فلا والله لاينظر الناس إليك وإلىَّ وأنت خير منى.. فقال: لأقتلنك.[2] وعلى الرغم من قبول ابن كثير[3] لهذا الرأى باعتبار ما ذهب إليه من أن تقريب القربان لم يكن عن سبب، سواء كان الزواجَ بامرأة أو غير ذلك، وبالتالى فإنه يتفق مع ظاهر القرآن الذى لم يورد سببا لتقديم القربان، فإن ما اشتمل عليه هذا الرأى من كلام نسب إلى قابيل ذكر فيه أناس أنه خشى أن يعلموا بما حدث

(١) تفسير المنار، الجزء الثامن، صفحة ٣١١

(٢) المرجع السابق، صفحة ٢٠٤

(٣) المرجع السابق، صفحة ٧٨

فيعتبروه أقل من أخيه، أو بالأحرى أن أخاه خير منه، من شأنه أن يثير التساؤل حول ما إذا كان قد وجد أناس غير آدم وأولاده على هذه الأرض، وهو التساؤل الذى سبق أن أثارته التوراة[1] بما ذكرته عن أبناء الله الذين رأوا بنات الناس وأعجبوا بحسنهن فتزوجوا منهن، مما يفهم منه أنه كان يعيش على هذه الأرض نوعان من الناس، لا ندرى إلى أيهما كان ينتمى آدم وأبناؤه؟!

كذلك فقد قيل إن قابيل ـ أو قايين ـ كان بكر آدم، أى أول أبنائه، وأن هابيل كان الثانى. ولو أن ترتيبهما كان متأخرا لقلنا إن ما عناه قابيل فى قوله (الناس) ربما يكون إخوته الذين ولدوا قبله وما قد يكونون أنجبوه من أولاد، ولكن الحقيقة غير ذلك. فمن يكون هؤلاء الناس الذين خشى قابيل أن يسخروا منه أو يحقروه؟! لاندرى!

وهكذا نلاحظ أن الاجتهاد فى التفسير على هذا الوجه وإضافة حكايات وروايات إلى التفسير يضر أكثر مما ينفع؛ لأنه يثير تساؤلات قد يتعذر الرد عليها. فلو أنه كان للسبب الذى قدم الأخوان قربانيهما من أجله أهمية بالنسبة للجريمة التى وقعت لذكره الله تعالى، كما سنرى فى جريمة إلقاء يوسف فى الجب، حيث قال إخوته إنهم إنما يفعلون ذلك حتى يستأثروا بحب أبيهم بعد أن يختفى يوسف. ولكن الله تعالى رأى ألا يبين سبب تقديمهما للقربان والاكتفاء بذكر الباعث على القتل؛ لأنه توجد عشرات الأسباب التى يمكن أن يكون القربان قد قدم من أجلها من بينها الزواج بهذه الأخت أو بتلك. فإذا أضفنا إلى ذلك أن التوراة ذاتها لم يرد بها شىء عن موضوع الزواج هذا لتبين لنا أنه من بنات أفكار أحبار اليهود الذين أقحموا الكثير منها على اليهودية مما يسمى بالإسرائيليات.

كذلك بالنسبة لنوع القربان الذى تقرب به كل منهما، وهل هو شاة سمينة أو عجفاء، أو كبش أعين أقرن أبيض أو أسود، أو بقرة كبيرة أو صغيرة، أو فاكهة أو خضراوات أو طعام، أو أسماك أو طير، فإن القرآن لم يبين ذلك لعدم أهميته بالنسبة للواقعة، ولو أنه كانت منه فائدة لذكره كما حدث فى مواقع أخرى

(١) سفر التكوين، الإصحاح رقم ٦

منه. ومع ذلك فقد أبى المفسرون والإخباريون إلا أن يذكروا روايات شتى منها: ما يقول إن القربان كان كبشا أَعْيَنَ - أى واضح العينين - أَقْرَنَ - أى كبير القرنين - وأن الله تعالى قبل هذا الكبش فخزنه فى الجنة أربعين خريفا، وهو الكبش الذى ذبحه إبراهيم عليه السلام![1].

ولا ندرى ما العلاقة بين الأمرين! وهل صحيح أن المدة من الوقت الذى قدم فيه ابنا آدم قربانيهما والوقت الذى عاش فيه إبراهيم - عليه السلام - وشرع فى ذبح ابنه إسماعيل هى أربعون سنة فقط؟! وأين الأجيال الكثيرة التى تتابعت من وقت آدم إلى وقت نوح الذى عاش حوالى ألف سنة وربما أكثر؟! ثم من وقت نوح إلى وقت إبراهيم عليهما السلام!

ويحق للمرء أن يتساءل: لماذا ركز المفسرون اهتمامهم على نوع القربان وهل كان جيدا طيبا أو رديئا ضئيلا؟! وكأن الله - سبحانه وتعالى - كآحاد الناس الذين تُهِمُّهُمْ مثل هذه الأمور المادية دون الأمور المعنوية كالنية، وما إذا كانت سليمة أو سقيمة، والقصد وهل كان خالصا لله أم لا؟! فقد يقدم الإنسان قربانا عظيما من أى نوع وبعدد وافر أو كميات كبيرة، ولكن نيته ليست سليمة وقصده ليس خالصا، فهل يتقبل منه أم لا يتقبل؟ طبعا لا يتقبل. كذلك الحال بالنسبة للأخوين ، وليس بشرط أن يكون قابيل قد قدم شيئا قليلا أو غير لائق، وكذلك بالنسبة لأخيه هابيل، ولو أن الأمر كان كما قال المفسرون لرد هابيل على قابيل قائلا له إنه قدم قربانا غير مناسب أو تافها أو ضئيلا، فكانت النتيجة أنه لم يتقبل منه، ولكنه قال له: إنما يتقبل الله من المتقين، أى أن الأمر منوط بالتقوى، وهى فى القلب، وليست فى الطعام أو الشراب أو المظهر أو غير ذلك. صحيح أنه قد يدل عليها، ولكن فى قضيتنا هذه تبين غير ذلك.

كذلك فإنه مما يسىء إلى الموقف أن يجرى الربط بين رغبة هابيل فى الزواج من أخته الجميلة التى هى توأم أخيه قابيل، وحرصه على تقديم أفضل ما عنده

(١) ابن كثير، المرجع السابق، صفحة ٧٧

وهو الكبش الأعين الأقرن السمين، فكأن ذلك رشوة يقدمها شخص بقصد الحصول على ما يبغى. وهذا غير صحيح كما سنرى.

فماذا كان رد فعل الأخ الذى لم يتقبل قربانه؟ غضب بشدة وصرخ فى أخيه: (لأقتلنك) أى أنه لم يكتف بأن يتوعده بالقتل بل أقسم ليقتلنه. وهو ما يدل على أنه فى غضبه بلغ الذروة دفعة واحدة، ولم يتدرج فيه كما يحدث عادة، حيث يتصاعد الغضب شيئا فشيئا إلى أن يصل إلى أقصاه، فيقسم الغاضب مؤكدا ما سيفعله بالمغضوب عليه، كأن يكون الأخ الذى تقبل قربانه قد استخف بالوعيد أو تحدى التهديد. ولكن ذلك لم يحدث، فكل ما رد به على أخيه ـ حتى بعد أن أقسم أن يقتله ـ هو قوله له: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1]

أى أن الله لا يقبل الصدقات وغيرها من الأعمال القبول الذى يقترن بالرضا والمصحوب بالإثابة إلا من المتصفين بالتقوى. وكما نرى: فإن هذه الإجابة تتضمن بيانا للسبب الذى من أجله لم يتقبل قربان الأخ الغاضب، فضلا عن اعتذار المغضوب عليه الذى كأنه قال: إننى لم أذنب إليك ذنبا تقتلنى به، فإن كان الله تعالى لم يتقبل منك فارجع إلى نفسك فحاسبها على السبب.

هنا تكمن المشكلة فيما يقوم من خلاف بين الناس ينتهى مثل هذه النهاية المأساوية الفاجعة، فالمخطىء والمقصر ومن تفترسه الغيرة ويتسلط عليه الحسد كلهم لا يحاولون أن يفكروا لماذا فشلوا، وأن يبحثوا عن الأسباب التى أدت إلى خسارتهم، وإنما يحملون غيرهم المسئولية عن هذه الخسارة وذلك الفشل. وتصور لهم عقولهم المريضة أن التخلص من الناجحين والرابحين هو الحل المناسب لمشكلتهم!

ولكن هذا الرد من هابيل على ما أقسم أخوه أن يفعله به ـ وهو أن يقتله ـ لم يأت بنتيجة، وما كان ليأتى بها مع قابيل ومن هم على شاكلته ممن تمكن منهم الحسد وتحكم فيهم الحقد، وإنما نتيجته تكون مع المتقين الخيرين، الذين يُحَكِّمُونَ المنطق ويحترمون العقل. ويبدو أن هابيل كان يرد على أخيه وهو ينظر إليه يسبر

(١) سورة المائدة، من الآية: ٢٧.

غوره؛ ليرى أثر كلامه فيه، فإن بدا مقتنعا فبها، وإلا فإنه سيضطر إلى أن يرد عليه بالمزيد. فمن الناس من يكتفى بمثل الرد الذى صدر عن هابيل، ومنهم من يحتاج إلى ما هو أكثر، وهو ما لاحظه هابيل على أخيه، فقال له ردا على قسمه له بأن يقتله: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]

ليس بعد ذلك وداعة ومسالمة وطمأنة للأخ الأحمق الغاضب؛ فهو يقول له: حتى لوأن يدك امتدت إلىَّ لتقتلنى فلن أعاملك بالمثل فأمد يدى إليك لأقتلك، وذلك لسبب بسيط هو أنى أخاف الله رب العالمين. وهو كلام كفيل بجعل من يسمعه ـ وكان فى قمة غضبه وذروة حنقه ـ أن يتمهل ويعيد النظر فيما أقسم عليه، بل أن ترتعد فرائصه أمام ذكر الله العظيم، ثم يقبل على أخيه فيعانقه ويعتذر له عما بدر منه فى حقه. وأرجح أن هابيل إنما أراد بقوله هذا أن يحدث هذا التأثير فى نفس أخيه لاعتقاده أنه مهما بلغ به الغضب فإنه لن ينفذ ما أقسم عليه؛ أليس أخاه؟! فكيف يقتله؟!

ولقد فسر البعض قوله لأخيه: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ ﴾[1] على أنه استسلام منه لأخيه إذا أراد أن يقتله، واستشهد ابن كثير[2] بأحاديث، منها: «**إذا كانت الفتنة فكن كخير ابنى آدم**»، وفى الصحيحين، عن النبى ﷺ أنه قال: «**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار، قالوا: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه**»[3] ومقتضى هذا الرأى أنه لو شرع شخص فى قتل آخر فعلى هذا الأخير أن يستسلم له ويتركه يقتله اقتداء بابن آدم، وهو ما لا يمكن أن يقول به أحد، ولا يدل عليه حديث الرسول ﷺ الذى رواه سعد بن أبى وقاص، ولا الحديث الذى فى الصحيحين، وإلا لكانت فرصة لضعاف النفوس من المجرمين

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٨

(٢) المرجع السابق، صفحة ٨٠

(٣) البخارى (كتاب الفتن) جزء ٩، صفحة ٦٤، ومسلم (كتاب الفتن) جزء ٨، ص ١٦٩

والسفاحين الذين لا يتورعون عن سفك دماء الأبرياء لأتفه الأسباب، فضلا عن أن ذلك مما يتعارض مع الطبيعة البشرية، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لايكلف نفسا إلا وسعها، وليس مما فى وسع الناس أن يروا القاتل يهم بقتلهم فينحنوا له استسلاما لكى يقطع رقابهم، أو يفرغ فيهم رصاصات مسدسه. ففى الحديث الذى رواه سعد بن أبى وقاص ذكرت الفتنة، وهو ما يعد تخصيصا صريحا للحالة التى يستسلم فيها الشخص لمن يشرع فى قتله. ليس ذلك وحسب، بل إن هذا الحديث والأحاديث المماثلة له لايجب أن يؤخذ بها بمعزل عن الأشخاص الذين قالها لهم الرسول ﷺ كأن يكونوا من كبار السن أو الضعفاء أو المرضى الذين قد لا يكون لهم قِبَلٌ بمن يريد قتلهم، فلو أنه دخل على أحدهم باسطا يده ليقتله، فإن مقاومة هذا له لن تجدى، وستكون النتيجة هى قتله له لا محالة فى غمرة الغضب الشديد الذى يعترى المتمردين أثناء الفتنة، أما إذا واجهه فى هدوء وردد أمامه ما قاله ابن آدم لأخيه: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]

فقد يزجره ذلك ويرده عن المضى فيما شرع فيه، خاصة وأنه مسلم يعرف القرآن والحديث، ويعلم أن القصاص قادم لا محالة إن لم يكن فى الدنيا ففى الآخرة، أو فى الاثنتين الواحدة بعد الأخرى.

ولعل الحديث الوارد فى الصحيحين يزيد الأمر وضوحا حيث قال الرسول ﷺ : «**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما**» وهذا واضح فى أن كلا منهما أخذ سيفه من بيته أو انتزعه من غمده قاصدا أن يواجه صاحبه، وهو يحمله لكى يستخدمه إذا تطور الموقف إلى القتال، وليس كذلك فى حالة ابنى آدم اللذين أقسم أحدهما أن يقتل الآخر دون أن يكون معه سلاح، على الأرجح، على ما سنبينه فى شرحنا لواقعة القتل. فإذا تطور الموقف بين من تواجها بسيفيهما إلى قتال فليس هناك أدنى شك فى أن قصد كليهما سيكون قتل الآخر وليس غير ذلك؛

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٨

لاعتقاده أنه إن لم يقتله هو فسيقتله غريمه. ولذلك نهى الرسول ﷺ عن أن يتواجه المسلمان بسيفيهما.

ولقد نسب إلى مجاهد قوله عن استسلام المهدد بالقتل لمن سيقتله إنه كان فرضا على المسلمين حينئذ ألا يستل أحد سيفا، وألا يمتنع ممن يريد قتله. وهو مالم يثبت حدوثه بأى حال. وأغرب مما قاله مجاهد قول القرطبى[1] أن العلماء يجوزون حدوث التعبد به، أى أن يتعبد شخص أو أشخاص بالاستسلام لمن يرغبون فى قتلهم! ويضيف قائلا: «وفى الحشوية قوم لا يجوزون لِلْمَصُول عليه - أى من يتعرض للاعتداء - الدفع، واحتجوا بحديث أبى ذر. غير أن رأى القرطبى هو جواز دفع الاعتداء إجماعا، أما الوجوب فقد حدث خلاف حوله، والأصح وجوب ذلك لما فيه من النهى عن المنكر.

ويقول رشيد رضا[2]: إنه ليس فيما قاله هابيل تصريح بعدم الدفاع البتة، وإنما فيه التصريح بعدم الإقدام على القتل. وهذا هو الصحيح؛ لأنه مما لا يمكن تصوره أن يستسلم المرء لمن يريد قتله لكى يذبحه ذبح الشاة. والمرة الوحيدة التى حدث فيها ذلك كانت يوم أن استسلم إسماعيل لأبيه إبراهيم - عليهما السلام - لكى يذبحه، ولكن ذلك كان بأمر من الله تعالى انصاع له الاثنان، ولم يكن بمبادرة من الأب وإذعان من الابن لغير ما سبب، أو حتى لسبب كأن يكون الأب قد غضب على ابنه.

وواضح أن هابيل كان يفتقر إلى الخبرة بالناس، وهذا أمر طبيعى بالنسبة له، فلم يكن فى الدنيا من الرجال غيره ومعه أخوه، فضلا عن أبيهما آدم، وذلك بخلاف ما حدث بعد ذلك لما تكاثر الناس وتعددت طباعهم وتباينت أخلاقهم، مما جعل للخبرة بهم أهميتها وللتجارب التى يخوضها المرء معهم قيمتها؛ بحيث يمكنه أن يتصرف معهم فى ضوء ما خاضه من تجارب، وما حصل عليه من خبرات؛ ولذلك فإن رده على أخيه - على الرغم مما تضمنه من موعظة بليغة واستعطاف لطيف - لم يؤثر فيه؛ لأن النفوس ليست واحدة فى استجابتها للموثرات

(١) المرجع السابق، صفحة ١٣٦

(٢) المرجع السابق، صفحة ٢٨٤

المختلفة. ولقد كانت نفس قابيل موغلة فى الشر؛ لذلك استطرد هابيل قائلا: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ ﴾[1] أى: إنى أريد بما ذكرت من اتقاء مقابلة القتل بمثله أن ترجع أنت - إن قتلتنى - متلبسا بإثمى وإثمك. أى: إثم قتلك إياى وإثمك الخاص بك الذى كان سببا فى عدم قبول قربانك. وهذا التفسير مأثور عن ابن عباس[2].

وفيه وجه آخر: وهو أنه مبنى على كون القاتل يحمل فى الآخرة إثم من قتله إن كان له آثام؛ لأن الذنوب والآثام التى فيها حقوق للعباد لا يغفر الله تعالى منها شيئا حتى يأخذ لكل ذى حق حقه. وإنما القصاص فى الآخرة بالحسنات والسيئات، فيعطى المظلوم من حسنات الظالم ما يساوى حقه إن كان له حسنات توازى ذلك، أو يحمل الظالم من آثام المظلوم وأوزاره ما يوازى ذلك إن كان له آثام وأوزار. وما نقص من هذا أو ذاك يستعاض عنه بما يوازيه من الجزاء فى الجنة أو النار. وفى ذكر هابيل إثمه وإثم أخيه تواضع وهضم لنفسه بإضافة الإثم إليها على الوجه الثانى، كما أن فيه تذكيرا لأخيه بأنه ليس له حسنات توازى هذا الظلم الذى عزم عليه؛ ولذلك أضاف إليه قوله: ﴿ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] أى: تكون بما حملت من الإثمين من أهل النار فى الآخرة؛ لأنك تكون ظالما، والنار جزاء كل ظالم، فتكون من أهلها حتما.

وهكذا يكون هابيل قد فعل كل ما بوسعه مع أخيه لصرفه عما اعتزمه من قتله، فقد بدأ معه ببيان كيف أنه لا يد له فيما حدث من رفض قربانه، فأوضح له السبب الذى من أجله يتقبل الله القرابين، وهو التقوى. فلما لم يقتنع انتقل هابيل إلى تنزيه نفسه عن مقابلة القتل بمثله، ثم ذكره بالخوف من الله تعالى الذى لا يرضى ممن وهبهم العقل والاختيار إلا أن يتحروا إقامة سننه فى تربية العالم، وتمكين كل إنسان يرغب فى الكمال من بلوغ كماله. ثم انتقل إلى تذكيره بأن المعتدى يحمل إثما مضاعفا هو إثم نفسه وإثم من اعتدى عليه بعدل الله تعالى فى القصاص والجزاء، وانتهى بتذكيره بعذاب النار، وكونها مثوى للظالمين، فماذا كان من تأثير هذه المواعظ فى نفس ذلك الحاسد الظالم؟ يبين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ ﴾[3]

(١) المائدة، من الآية: ٢٩
(٢) ابن كثير، المرجع السابق، صفحة ٨١
(٣) المائدة، من الآية: ٣٠

أى: شجعته نفسه، وهو المأثور عن ابن عباس ومجاهد. غير أن للشيخ محمد رشيد رضا تفسيرا آخر لكلمة (طوعت) يقول فيه: «إن هذه الكلمة تدل على تدرج وتكرار فى حمل الفطرة على طاعة الحسد الداعى إلى القتل، كتذليل الفرس والبعير الصعب. فهى تمثل - لمن يفهمها - ولد آدم الذى زين له حسده لأخيه قتله، وهو بين إقدام وإحجام، يفكر فى كل كلمة من كلمات أخيه الحكيمة، فيجد فى كل منها صارفا له عن الجريمة، يدعم ويؤيد ما فى الفطرة من صوارف العقل والقرابة والهيبة، فكَرَّ الحسد من نفسه الأمَّارة على كل صارف فى نفسه اللوَّامة، فلا يزالان يتنازعان ويتجاذبان حتى يغلب الحسد كلا منها ويجذبه إلى الطاعة، فإطاعة صوارف الفطرة وصوارف الموعظة لداعى الحسد هو التطويع الذى عناه الله تعالى. فلما تم كل ذلك قتله. وهذا المعنى يدل عليه اللفظ، ويؤيده ما يعرف من حال البشر فى كل عصر، بمقتض، فنحن نرى من أحوال الناس واختبار القضاة للجناة، أن كل من تحدثه نفسه بقتل أخ له من أبيه القريب أو البعيد (آدم) يجد فى نفسه صارفا أو عدة صوارف تنهاه عن ذلك، فيتعارض المانع والمقتضى فى نفسه زمنا طويلا أو قصيرا، حتى تطوع له نفسه القتل بترجيح المقتضى عنده على الموانع، فعند ذلك يقتل إن قدر. فالتطويع لابد فيه من التكرار كتذليل الحيوان الصعب، وتعليم الصناعة أو العلم. وقد يكون التكرار لأجل إطاعة مانع أو صارف واحد، وقد يكون لإطاعة عدة صوارف وموانع»[1]. وأقرب الألفاظ التى قيلت إلى هذا المعنى كلمة «التشجيع» المأثورة، فهى تدل على أنه كان يهاب قتل أخيه وتجبن فطرته دونه، فما زالت نفسه الأمارة بالسوء تشجعه عليه حتى تجرأ وقتل عقب التطويع بلا تفكر ولا تدبر للعاقبة.

ويقول سيد قطب[2]: ذللت له نفسه كل عقبة، وطوعت له كل مانع، طوعت له نفسه القتل.. وقتل من؟ قَتْلُ أخيه.. وحق عليه النذير: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[3] خسر نفسه فأوردها موارد الهلاك. وخسر أخاه الصالح التقى

(١) المرجع السابق، صفحة ٢٨٥
(٢) المرجع السابق، صفحة ٨٧٦
(٣) المائدة، من الآية: ٣٠

وهو أقرب الناس إليه وأبرهم به فى الدنيا، ففقد الناصر والرفيق. وخسر دنياه فما تهنأ للقاتل حياة، وخسر آخرته فباء بإثمه الأول وإثمه الأخير.

ونرجح أن القتل لم يقع عقب الجدل الذى دار بين الأخوين، وإنما وقع بعد ذلك بفترة قد تكون يوما أو أكثر، وهو ما يفهم من لفظ «طوعت» الذى شرحه رشيد رضا شرحا علميا وافيا. فالقاتل ظل يفكر فيما أقسم على ارتكابه من جرم، تتجاذبه مشاعر متعارضة فيميل تارة مع هذه ويميل أخرى مع تلك، إلى أن حزم رأيه وحسم اختياره وانتهى إلى حرق مراكبه حتى لايعود إلى شاطىء العقل والحكمة. وهذه الفترة التى استغرقها فى اتخاذ قراره تعد فارقة بين نوعين من القتل، أولهما: القتل العمد. وثانيهما: القتل مع سبق الإصرار، وهو فارق هام فى القانون الوضعى يترتب عليه تحديد العقوبة التى يستحقها الفاعل، وما إذا كانت الأشغال الشاقة أو الإعدام.

وعلى الرغم من تحفظاتنا على كثير مما جاء فى التوراة بشأن الموضوعات الواردة فى هذا الكتاب ومن بينها هذا الموضوع، فإننا لا نرى تعارضا بين ما ذكره القرآن من تطويع نفس قابيل له لقتل أخيه ،وما ذكرته التوراة بخصوص واقعة القتل حيث جاء فيها: «وحدث إذ كانا فى الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله»[1] أى أنه فاجأه بالهجوم عليه. وفى الطريقة التى قتله بها روايات مختلفة، تتفق كلها وما ذهبنا إليه من أنه قتله غيلة وغدرا؛ فقد قال ابن عباس وابن مسعود : وجده نائما فشدخ رأسه بحجر. وقال ابن جريج ومجاهد وغيرهما: إنه جهل كيف يقتله، فجاء إبليس بطائر ـ أو حيوان غيره ـ فجعل يشدخ رأسه بين حجرين ليقتدى به قابيل، ففعل. غير أنه قيل إن قابيل كان يعرف القتل بطبعه؛ لأن الإنسان وإن لم ير القتل فإنه يعلم بطبعه أن النفس فانية ويمكن إتلافها، فأخذ حجرا فقتله[2]. وقال السدى: إن قابيل طلب أخاه ليقتله، فراغ الغلام منه فى رءوس الجبال، فأتاه يوما من الأيام وهو يرعى غنما له. وهو

(١) تكوين، إصحاح ٨

(٢) القرطبى، المرجع السابق، صفحة ١٤٠

نائم، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات، فتركه بالعراء[1]. وعن بعض أهل الكتاب: أنه قتله خنقا وعضا، كما تقتل السباع. وقال ابن جرير: «لما أراد أن يقتله جعل يلوى عنقه، فأخذ إبليس دابة ووضع رأسها على حجر، ثم أخذ حجرا آخر فضرب به رأسها حتى قتلها، وابن آدم ينظر، ففعل بأخيه مثل ذلك»[2].

الباعث على الجريمة الحسد:

الباعث على جريمة قتل قابيل لهابيل هو الحسد؛ فقد حسده لأن الله تقبل قربانه ولم يتقبل قربانه هو. فما هو حكم الحسد فى الإسلام؟ وما هو تعريفه؟ وما هى أنواعه؟

ورد ذكر الحسد باسمه فى القرآن فى ثلاث آيات من ثلاث سور، الأولى سورة البقرة فى قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[3]

وقوله فى سورة النساء: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[4]

وأخيرا سورة الفلق فى قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[5].

وورد الحسد بمضمونه أو بمعناه فى آيات أخرى كثيرة، منها- على سبيل المثال لا الحصر- قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾[6]

ومنها قوله سبحانه فى إخوة يوسف: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[7]

وقوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾[8]

وغير ذلك كثير.

---

(١) االطبرى، المرجع السابق، جزء ١٠، صفحة ٢٢٢.
(٢) ابن كثير، المرجع السابق، المجلد ٣، صفحة ٨٣
(٣) البقرة: ١٠٩.
(٤) النساء: ٥٤.
(٥) الفلق: ٥.
(٦) المائدة، من الآية: ٢٧
(٧)يوسف: ٨.
(٨) آل عمران: ١٢٠.

كذلك ورد الحسد فى كثير من الأحاديث النبوية التى سنوردها فى المواقع التى تناسبها من هذه الدراسة منعا للتكرار.

تعريف الحسد:

الحسد: هو تمنى زوال النعمة عن الغير. فلا حسد إلا على نعمة أنعم الله بها على إنسان. والفرق بينها وبين الغبطة أن من يغبط لايتمنى زوال النعمة ولا يكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهى نفسه مثلها، وقد يسمى ذلك منافسة. والأول - أى الحسد- حرام بكل حال إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على إثارة الفتنة، وإفساد ذات البين، وإيذاء الخلق، فليس هناك ضرر فى أن يكرهها الناس و يتمنوا زوالها، ليس من حيث هى نعمة بل من حيث هى آلة للفساد فحسب[1]. ومن الأمثلة على ذلك قول رسول الله ﷺ: «**لاحسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله علما فهو يعمل به ويعلمه الناس**»[2] وقوله: «**مثل هذه الأمة مثل أربعة: رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه فى ماله، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول: رب لو أن لى مالا مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله، فهما فى الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفقه فى معاصى الله، ورجل لم يؤته علما ولم يؤته مالا فيقول: لو أن لى مثل مال فلان لكنت أنفقه فى مثل ما أنفقه فيه من المعاصى فهما فى الوزر سواء**»[3] وفى هذا الحديث لم يتمن أحد زوال النعمة عن الغير، وإنما فى ذلك من تمنى أن ينعم الله عليه بمثل ما أنعم به على الآخر لكى يوجهها إلى الخير، أو من تمنى النعمة لكى يستخدمها فى ارتكاب المعاصى، فهذه غبطة وليست غبطة، ولكن الفرق بينهما أن الأولى محمودة والثانية مذمومة، بل هى حرام.

ويقول القرطبى[4]: الحسد أن تتمنى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم،

(١) الإمام الغزالى، إحياء علوم الدين، المجلد الثالث، صفحة ١٨٦.

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٣) رواه ابن ماجة، والترمذى، وقال: حسن صحيح.

(٤) المرجع السابق، الجزء الثانى، صفحة ٧١.

وسواء تمنيت مع ذلك أن تعود إليك أو لا، هذا النوع الذى ذمه الله تعالى فى كتابه بقوله: ﴿ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[1] إنما كان مذموما لأن فيه تسفيه الحق- سبحانه وتعالى- وأنه أنعم على من لا يستحق.

وقد جاء فى صحيح الحديث من قوله- عليه السلام-: «**لاحسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**». وهذا معناه الغبطة. وقد روى أن النبى ﷺ قال: «**المؤمن يغبط، والمنافق يحسد**». وكذلك ترجم عليه البخارى «باب الاغتباط فى العلم والحكمة». وحقيقتها: أن تتمنى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنعمة ولايزول عنه خيره، وقد يجوز أن يسمى منافسة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[2].

أنواع الحسد:

من الآيات القرآنية التى ذكرناها فيما سبق ومن غيرها من الآيات نلاحظ أن الله تعالى أورد فى كتابه العزيز نوعين من الحسد، أحدهما: الحسد الجماعى الذى يصدر عن جماعة ضد جماعة، كاليهود الذين كانوا ولا يزالون يكنون حسدا شديدا للمسلمين، يشاركهم فيه النصارى أيضا، وبالذات الكهنة والمبشرون الذين ما انفكوا يكيدون للإسلام فى كل مكان وفى كل العصور. وأختلف مع الشيخ رشيد رضا[3] فيما قاله من «أن أهل الكتاب الذين ذكرهم الله فى قوله فى سورة البقرة: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾[4] هم اليهود، فهو لم يسند الحسد إلى غيرهم؛ لأنهم- وقد سلب منهم الملك- يتمنون عودته إليهم، وقد كبر عليهم أن تسبقهم العرب فى ذلك، ولم يكن النصارى يومئذ يحسدون المسلمين؛ لأنهم

(١) النساء، من الآية: ٥٤

(٢) المطففون: ٢٦.

(٣) المرجع السابق، الجزء الخامس، صفحة ١٣١

(٤) البقرة: ١٠٩

متمتعون بملك واسع!». وسبب الخلاف أن الله تعالى ذكر أهل الكتاب وهو وصف يشمل اليهود والنصارى. ولو كان يخصهم بالحسد فى هذه الآية لذكرهم بالاسم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن النصارى وإن كان ملكهم يومئذ واسعا ـ وهذه حقيقة ـ إلا أن حسدهم للمسلمين ـ وبخاصة رهبانهم وكبار رجال كنيستهم ـ لم يكن الباعث عليه الملك فقط، بل اعتقادهم بأنهم يملكون الحقيقة دون غيرهم، فلما بعث محمد ﷺ بدين التوحيد حسدوه، ودفعهم حسدهم له إلى إنكار نبوته، وما قصتهم مع هرقل والمقوقس لما تسلما الرسالتين اللتين بعث بهما الرسول إليهما بالتى تنسى.

أما النوع الثانى من الحسد فهو الذى يكون بين الأفراد، وهو الشائع، ومثاله حسد قابيل لهابيل، وحسد إخوة يوسف له ولأخيه. وهو ما نلاحظ أن القرآن الكريم لم يذكر كلمة (حسد) فيه، بخلاف الحسد الجماعى، وإن كان قد جمعه تحت مبدأ عام هو الحسد، وذلك فى سورة الفلق حيث قال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[1].

فالحاسد هنا فرد، أو عدد قليل من الأفراد، بخلاف ما ورد فى سورتى البقرة والنساء مما أوردناه فيما سبق. ولقد حاولت أن أصل إلى معرفة السبب فى أن الله ذكر الحسد صراحة فى حالة صدوره من جماعة، وذكره ضمنا فى حالة صدوره من أفراد، ولكن لم أجد شيئا فى هذا الخصوص فى كتب التفسير على الرغم من أهمية هذا الاختلاف، وعلى ما يبدو لى: ذلك لأن مثل هذه الأمور لا ترد فى القرآن كيفما اتفق، وإنما يكون استخدام الكلمات فى موضع وعدم استخدامها فى موضع آخر ـ على الرغم مما يقوم بينهما من تماثل فى كثير من التفاصيل ـ إنما هو لحكمة بلاشك. والذى أرجحه فى حالتنا هذه أن الله تعالى أراد أن يعرِّف سلوك أهل الكتاب من اليهود والنصارى نحو المسلمين بدقة ووضوح، فأسماه باسمه: الحسد، أى تمنى زوال نعمة الإسلام عن المسلمين. أما فى الحالات الأخرى التى لم ترد فيها كلمة (حسد)، سواء فى ذلك التى يكون

(١) سورة الفلق، الآية: ٥

فيها الحسد فرديا أو التى يكون فيها جماعيا، فإن الله تعالى ترك للناس تحديد طبيعة الفعل وهل هو حسد أم لا، وذلك بالنظر إلى ما يكون من اختلافات لا حصر لها بين الأفعال، مما يحتمل معه ألا يدخل بعضها تحت وصف الحسد. كذلك فإن الله تعالى أراد أن يبين لنا أن الحسد الموجه إلى نعمة الدين ـ وهو الإسلام ـ أخطر وأشد ضررا من الحسد الذى يتمنى فيه صاحبه زوال أى نعمة أخرى غير نعمة الإسلام. فليس من خسارة تصيب المسلم أفدح من خسارته فى دينه.

ولكن ما الذى يجعل إنسانا يتمنى زوال النعمة عن إنسان آخر؟!

يتمنى إنسان زوال النعمة عن إنسان آخر لسببين، الأول: ما توفره هذه النعمة لصاحبها من راحة وسرور، أما السبب الثانى فيرجع إلى الحاسد نفسه، فهو يشعر بأنه ينقصه شىء يجعله متخلفا عن الذى أصابته النعمة، فهو يريد أن يتساوى معه ويلحق به. ولكنه لايعمل من أجل هذه الغاية، إما لعجزه عن بذل الجهد الذى يمكنه من الحصول على النعمة، أو لأنه كسول متقاعس لايريد أن يتعب ويعانى من أجل اللحاق بغيره والتساوى معه، فماذا يفعل لكى يحقق هذه النتيجة؟ إنه يفضل أن يفقد صاحب النعمة نعمته، وبهذا يعود كما كان لايتميز على الحاسد بشىء. ويقول الغزالى[1]: «وإذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشفى عند الحاسد من دوامها، إذ بزوالها يزول تخلفه وتقدم غيره، ويظل هذا الخاطر يلح على الحاسد بحيث إنه لو كان الأمر بيده وموكولا إلى اختياره لسعى فى إزالة النعمة عن المحسود. أما إن كان تقيا فإن تقواه ستمنعه من السعى إلى إزالة تلك النعمة وتحول دون استجابته لما فى طبعه من الارتياح إلى زوالها عن المحسود مهما كان كارها لتلك النعمة.

وهنا يثور تساؤل حول طبيعة الحسد وما إذا كان مكتسبا أو فطريا؟

اختلفت الآراء بشأن طبيعة الحسد وهل هو مكتسب أو فطرى؟ فذهب رأى إلى أنه مكتسب بواسطة التنشئة الاجتماعية التى تشمل التعلم والتعليم والتربية، بمعنى أن الطفل يتعلم الحسد من أبويه عن طريق الملاحظة، إذ يراهما ويسمعهما يعبران عن تمنى زوال النعمة عن الغير، أو يعلمانه الحسد بشكل مباشر، فيشب حسودا حقودا. أما الرأى الثانى فيذهب إلى أن الحسد فطرى فى الإنسان أو

(١) المرجع السابق، المجلد الثالث، صفحة ١٨٧

جِبِلِّيٌّ. وهو ما أرجحه؛ لارتباطه بغريزة حب البقاء التى توجد لدى كل الكائنات وليس الإنسان فقط، ولذلك نراها جميعا تهرب من الموت ويعتريها فزع شديد عند مواجهتها له. غير أن الإنسان يزيد على غيره من الكائنات بما منحه الله من عقل؛ فهو لا يكتفى بأن يكون على قيد الحياة، وإنما يريد أن يعيش كما يعيش غيره، وبخاصة من يعتبرهم أقرانا له ونظراء، فهو يكره أن يقل عنهم فى شىء، ويسيئه أن يحصل أحد منهم على نعمة تجعله متقدما عليه، فتتحرك فى نفسه مشاعر الحسد، أى: تمنى زوال هذه النعمة عن صاحبها. أما إذا كان عدوانيا فإنه لايقف عند حد تمنى زوال النعمة عن صاحبها، بل يلجأ إلى الاعتداء على صاحب النعمة من أجل أن يحول دون تمتعه بها، أو يلجأ إلى الاعتداء على النعمة ذاتها تاركا صاحبها يتألم لفقدها. والدليل على أن الحسد فطرى فى الإنسان قول الرسول ﷺ: «**ثلاث لا ينفك المؤمن منهن: الحسد، والظن، والطيرة**» فى رواية أخرى قال ﷺ: «**ثلاثة لايسلم منهن أحد: الطيرة، والظن، والحسد**» قيل: فما المخرج منهن يارسول الله؟ قال: «**إذا تطيرت فلا ترجع، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فلا تبغ**»[1].

والسبب فى الحسد هو حب الإنسان لنفسه وتفضيله لها على غيرها، فهو لا يحب أن يسبقه أحد ممن هم فى نفس درجته وظروفه أو أن يتفوق عليه؛ لذلك نلاحظ أن أصحاب الحرف التافهة يوجد فيهم من يحسدون زملاءهم على ما يعتبرون أنه نعمة حظوا بها، على الرغم من أنها قد لا تكون كذلك بالنسبة لغيرهم. من ذلك أن جامع قمامة حدثنى أن زملاءه الذين يعملون فى الأحياء الشعبية يحسدونه لأنه يجمع القمامة من المهندسين!! كذلك العلماء يحسد بعضهم بعضا على ما يصيبونه من نعم، ومن باب أولى الأمراء وأصحاب السلطان وكبار الموظفين.

صور الحسد:

للحسد صورتان، الأولى: هى التى يقف فيها الحاسد عند تمنى زوال النعمة عن المحسود فقط، سواء تمنى أن يكون له مثل هذه النعمة أو لم يتمن. أما الصورة

(١) الدينورى (عيون الأخبار) الجزء الرابع، صفحة ٨

الثانية فهى التى يتجاوز فيها الحاسد حدود التمنى إلى القيام بعمل يهدف به إلى إزالة النعمة عن المحسود، أو القضاء عليه لكى يختفى من أمامه، كما فعل قابيل بهابيل، وإخوة يوسف به. ولا يشترط أن يتمنى الحاسد أن يكون له مثل هذه النعمة أو هى ذاتها. وهذه هى الصورة التى يشدد الإسلام فى النهى عنها، وذلك فيما روى عن رسول الله ﷺ فى الحديث السابق الذى قال فيه «**إذا حسدت فلا تبغ**» أى: إن وجدت فى قلبك شيئا من كراهة النعمة التى أصابها غيرك وتمنيت زوالها فلا تفعل شيئا من أجل إزالتها، وإلا تكون قد ارتكبت إثما عظيما.

فما هى أسباب الحسد؟

حصر الإمام الغزالى أسباب الحسد فى سبعة، هى: العداوة، والتعزز، والكبر، والعُجْبُ، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة، وحب الرياسة، وخبث النفس وبخلها.

السبب الأول: العداوة والبغضاء، وهما من أشد أسباب الحسد؛ فالإنسان الذى يصيبه أذى من إنسان آخر تشتعل نفسه نحوه بالعداء والبغض فيحقد عليه ويتمنى أن يزول كل ما لديه من نعم. ويقول الغزالى[1]: إن الحقد يقتضى التشفى والانتقام، فإن عجز الحاسد عن أن يتشفى أحب أن يتشفى منه الزمان، أى: من المحسود. والحسد بسبب البغض ربما يفضى إلى التنازع والتقاتل واستغراق العمر فى إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر.

السبب الثانى: التعزز، وهو أن يكره الإنسان أن يترفع عليه غيره ممن هم فى مثل مكانته، كأن يكون أستاذا بالجامعة، فيعين أحد زملائه وزيرا، أو يكون تاجرا فيعقد زميل له صفقة ضخمة تعود عليه بربح وفير، أو أن يكون عالما فيحصل زميل له على جائزة مالية ضخمة فيخاف أن يتكبر عليه، ويرفض صلفه وتفاخره عليه، ولا يجد حلا لذلك غير زوال هذه النعمة عنه.

---

(١) المرجع السابق، صفحة ١٨٨

السبب الثالث: الكبر، ويكون من المتبوع نحو تابعه الذى نال نعمة، فهو يخشى أن يتكبر عليه ويترفع عن متابعته، وربما يتطلع إلى أن يتساوى به، أو إلى أن يرتفع عليه؛ لذلك يتمنى زوال النعمة التى حصل عليها حتى يبقى خاضعا له.

السبب الرابع: العجب، وهو إعجاب المرء بنفسه، ورفضه أن ينال من هو مثله نعمة دونه، وهو يظن أنه الأجدر بها؛ ولذلك فهو يتمنى زوالها عنه حتى لا يرتفع عليه.

السبب الخامس: الخوف من فوت المقاصد، كما فى حالة التزاحم على هدف واحد، كأن تكون هناك وظيفة واحدة تقدم لشغلها عدد من الناس، فإذا كان لأحدهم ما يرجح كفته على غيره مثل الواسطة أو القرابة بمسئول أو غير ذلك فإن من يزاحمونه على الوظيفة يتمنون زوال هذه النعمة أو تلك عنه؛ حتى لا يحظى بالوظيفة دونهم.

السبب السادس: حب الرياسة وطلب الجاه لذاتهما؛ وليس لاتخاذهما وسيلة لغاية ما، كالشخص الذى يحب أن يكون رئيسا لفئة من الفئات كالأدباء والكتاب، أو الذى يريد أن يكون أميرا للشعراء، أو من يحب أن يوصف بصفة تجعله متميزا عن كل أقرانه، متفردا عن زملائه أو نظرائه، يقدمه الناس عليهم. ومثله لايحب أن يكون هناك من ينافسه فى الرياسة أو يزاحمه فى الزعامة، فإن ظهر مثل هذا الشخص حسده وتمنى زوال النعمة عنه؛ حتى يظل هو الوحيد صاحب المكانة. وأكثر ما يوجد هذا السبب بين الحكام ملوكا كانوا أو رؤساء.

السبب السابع: خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله، ويكون فى الشخص الذى إذا سمع أن إنسانا ما نال نعمة من الله كره ذلك، وإذا سمع عن اضطراب حال الناس ومعاناتهم وتنغص عيشهم فرح بذلك. فهو أبدا يحب الشر للناس، ويبخل بنعمة الله على عباده، كأنهم يأخذون من ماله. ويقال: البخيل من يبخل بمال نفسه، والشحيح: هو الذى يبخل بمال غيره.

ويعتبر الغزالى[1] هذا السبب من أسباب الحسد الوحيد الفطرى الجِبِلِّىَّ، أما الأسباب الستة الأخرى فيعتبرها مكتسبة. وهو يقول فى ذلك: إن «معالجته شديدة لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب أسبابه عارضة يتصور زوالها فيطمع فى إزالتها، وهذا خبث فى الجِبِلَّةِ لا عن سبب عارض فتعسر إزالته؛ إذ يستحيل فى العادة إزالته».

وليس بشرط أن ينشأ الحسد عن سبب واحد من هذه الأسباب، بل قد يجتمع بعضها أو أكثرها أو جميعها فى شخص واحد، وفى هذه الأحوال يكون الحسد شديدا بحيث يتعذر على الحاسد أن يخفيه عن الناس، فلا يلبث أن يعرف به ويشتهر أمره.

وأكثر ما يكون الحسد بين الإخوة وبنى العم والأقارب، وكذلك بين الزملاء والأقران، ويقل بين الغرباء، والسبب فى ذلك أن الأقارب بعامة ـ والإخوة وبنى العم على وجه الخصوص ـ لا يحبون أن يتفوق واحد منهم عليهم، بل يرغبون أشد الرغبة فى أن يتساووا جميعا لما غلب على ظنهم من أن تفوق البعض من شأنه أن يجعله يتكبر عليهم ويستعلى بالنعمة التى حظى بها، سواء أكانت مالا أم جاها أم سلطانا أم شهرة فلا يعود الناس يهتمون بهم، بل يتجهون باهتمامهم إلى صاحب النعمة فيتراجعون هم ويقل شأنهم.

كذلك فإن الإخوة وأبناء العم يكونون ـ فى أغلب الأحيان ـ على صلة قوية ببعضهم، سواء بالإقامة فى بيت واحد كالإخوة، أو يتزاورون فيطلع بعضهم على أحوال بعض، فإنه لا يخفى عليهم ما يصيبه البعض منهم من نعمة تخل ـ فى اعتقادهم ـ بما بينهم من مساواة، فيكرهون ذلك ويتمنون زوالها حتى تعود الأوضاع إلى ما كانت عليه. وكذلك فى العمل بين الزملاء، وفى الحرف بين الحرفيين المتجاورين، بل وبين الجيران. فالحسد يكثر بسبب القرب ويقل مع البعد.

---

(١) المرجع السابق، صفحة ١٩٠

عواقب الحسد:

للحسد عواقب وخيمة، أكثرها يعود على الحاسد. ففيما عدا الحالة التى يرتكب فيها الحاسد جريمة أو يأتى بفعل لا يعد جريمة وإنما مجرد تصرف لا أخلاقى مثل السعى بالوقيعة أو الكيد للمحسود، فإن كل عواقب الحسد تعود على الحاسد. يقول القرطبى[1]: «والحسد مذموم وصاحبه مغموم، وهو «**يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**» رواه أنس عن النبى ﷺ وقال أعرابى: ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد، نَفَسٌ دائم، وحزن لازم، وعبرة لاتنفد. وقال عبد الله بن مسعود: لا تعادوا نعم الله. قيل له: ومن يعادى نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، يقول تعالى فى بعض الكتب: الحسود عدوٌّ نعمتى متسخط لقضائى غير راض بقسمتى. ويقال: الحسد أول ذنب عصى الله به فى السماء، وأول ذنب عصى به فى الأرض، فأما فى السماء فحسد إبليس لآدم. وأما فى الأرض فحسد قابيل لهابيل. وقيل: إذا سرك أن تسلم من الحاسد فغم عليه أمرك. وقال بعض أهل التفسير فى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾[2]:

«إنه إنما أراد بالذى من الجن إبليس، والذى من الإنس قابيل، وذلك أن إبليس كان أول من سنَّ الكفر، وقابيل أوَّل من سن القتل، وإنما كان أصل ذلك كله الحسد».

وقال ابن المقفع: أقل ما لتارك الحسد فى تركه أن يصرف عن نفسه عذابا ليس بمدرك به حظا، ولا غائظ به عدوا، فإنا لم نر ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد، طول أسف، ومحالفة كآبة، وشدة تحرق، ولايبرح زاريا على نعمة الله ولا يجد لها مزالا، ويكدر على نفسه ما به من النعمة فلا يجد لها طعما، ولا يزال

(١) القرطبى، المرجع السابق، الجزء الخامس، صفحة ٢٥١
(٢) ٢٩ فصلت

ساخطا على من لايترضاه، ومتسخطا لما لن ينال فوقه، فهو منغص المعيشة، دائم السخطة، محروم الطَّلِبَة، لا بما قسم له يقنع، ولا على ما لم يقسم له يغلب، والمحسود يتقلب فى فضل الله مباشرا للسرور، منتفعا به، ممهلا فيه إلى مدة، ولا يقدر الناس لها على قطع أو انتقاص[1].

ويضيف القرطبى[2] قائلا: «قال العلماء: الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فيتبع مساوئه ويطلب عثراته».

وقال بعض الحكماء: بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه، **أحدها**: أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره. **وثانيها**: أنه ساخط لقسمة ربه، كأنه يقول: لم قسمت هذه القسمة؟. **وثالثها**: أنه ضاد فعل الله، أى إن فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو يبخل بفضل الله. **ورابعها**: أنه خذل أولياء الله، أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم. **وخامسها**: أنه أعان عدوَّه إبليس. وقيل: الحاسد لا ينال فى المجالس إلا ندامة، ولا ينال عند الملائكة إلا لعنة وبغضاء، ولا ينال فى الخلوة إلا جزعا وغما، ولا ينال فى الآخرة إلا حزنا واحتراقا، ولا ينال من الله إلا بعدا ومقتا. وروى أن النبى ﷺ قال: «**ثلاثة لا يستجاب دعاؤهم: آكل الحرام، ومكثر الغيبة، ومن كان فى قلبه غل أو حسد للمسلمين**» والله سبحانه وتعالى أعلم.

كذلك فإنه لايمنع الناس من اتباع الحق بعد ظهوره مثل الحسد والكبر، فالحسود يؤثر هلاك نفسه على انقيادها لمن يحسده؛ لأن الحسد يفسد الطباع. ولقد أسند الله تعالى فى سورة البقرة الحسد إلى اليهود؛ لأنهم ـ وقد سلب منهم الملك ـ يتمنون عودته إليهم، وقد كبر عليهم أن تسبقهم العرب إلى ذلك؛ لذلك فإنه لم يؤمن بالإسلام إلا نفر قليل من اليهود، ومنع الحسد باقى الرؤساء أن يؤمنوا وتبعهم العامة تقليدا لهم. ولا يزال اليهود يحسدون المسلمين ويعملون

(١) الدينورى، المرجع السابق، صفحة ٩

(٢) المرجع السابق، الجزء ٢٠، صفحة ٢٦٠

جاهدين من أجل زوال نعمة الإسلام عنهم، باعتبار أنه القوة التى تحركهم، وذلك بأن يفسدوا دينهم بشتى الوسائل ومن بينها الجنس والمخدرات والعقائد الفاسدة، ويستغلون ضعف الحكام وتهاونهم وحرصهم على الدنيا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإذا كان الإسلام لم يعتدَّ فى الحسد إلا بما كان مقترنا أو مصحوبا بفعل يقصد به الحاسد زوال النعمة عن المحسود أو زوال المحسود ذاته، فإنه إنما فعل ذلك حتى لا يترك الناس يتهم بعضهم بعضا بالحسد دون دليل غير الظن الذى لا يغنى عن الحق شيئا، ومن ثم تسوء العلاقات بينهم، وتتغير مشاعرهم نحو بعضهم من المودة إلى البغض والكراهية، ومن الثقة إلى الشك والريبة. وهو ما نلاحظه الآن حيث جرت عادة الناس على اتهام بعضهم بالحسد، حتى ولو لم يكن هناك ما يدل عليه من أفعال أو أقوال صدرت عمن يتهمونهم به. صحيح أن الحسد فطرى يرتبط بغريزة حب البقاء والمبالغة فى حب الإنسان لنفسه، وهو ما يوصف بالـ «أنانية» كما أنه يرتبط بغريزة العدوان التى هى بدورها مرتبطة بغريزة حب البقاء، غير أنه طبقا لما بيناه فى أسباب الحسد، لا يتفشى الحسد بين الناس بالصورة التى يتخيلونها الآن، والتى كدرت صفو حياتهم، وإنما يوجد ـ فى الغالب ـ بين الأقران والمتماثلين، وإن وجد بين غيرهم فإنما يرجع ذلك إلى عدم قيام القادرين بما فرضه الله تعالى عليهم نحو غير القادرين.

أثر شيوع الاعتقاد فى الحسد على السلوك والعلاقات:

يلاحظ شيوع الاعتقاد فى الحسد على نطاق واسع، فى العقدين الأخيرين، حتى أصبح كثير من الناس لا يترددون فى نسبة كثير مما يقع لهم ـ أو لغيرهم ـ من أحداث مؤسفة إلى الحسد، حتى الإصابة بالمرض والطلاق وفسخ الخطبة والرسوب فى الدراسة وغير ذلك. مما أدى إلى عدم أخذهم بالأسباب والعمل على تلافى الأخطاء، فبدلا من أن يبحثوا عن السبب الذى من أجله سقط الرجل من فوق الدرج فتحطمت عظامه، وذلك نتيجة لوجود كسر فى إحدى

الدرجات جعل قدم الرجل تتزلق، أو لانصراف الطالب عن المذاكرة فرسب، أو لوجود عيب فى السيارة أدى إلى اصطدامها بأحد المارة أو غير ذلك، فإنهم يوجهون كل اهتمامهم إلى من يعتقدون أنهم تسببوا فى كل ذلك بحسدهم: ماذا قال الواحد منهم؟ وكيف نظر؟ وما اعترى وجهه من تغير؟! ثم ينتقلون بعد ذلك إلى المرحلة الثانية وهى تقديم النصائح للمحسود ولغيره بأن يقرأ الفلق مثلا أو بعض الآيات التى تشتمل على كلمة الحسد، أو بأن يحمل المصحف معه أينما ذهب، وأن يضعه فى سيارته وتحت وسادته، أو أن يستخدم حجابا، أو يحفظ تعويذة معينة، أو يذكر فى إجابته على الحاسد أو حديثه معه كلمة (خمسة) فإذا سأله عن سنه قال: خمسة وثلاثون، وإذا كان السؤال عن الراتب أجاب مائة وخمسة جنيهات، إلى غير ذلك من المعتقدات الفاسدة. أما النساء فلهن تصرفات أخرى تكاد تكون قاصرة عليهن، منها استخدام الخرز الأزرق فى الحلى التى يضعنها على صدورهن أو حول معاصمهن، بالإضافة إلى النماذج الذهبية من القرآن الكريم أو من سورة الفلق أو بعض الآيات التى تشتمل على كلمة الحسد، كذلك بعض الحلى الذهبية التى على شكل عين تتوسطها أحجار كريمة زرقاء اللون كالفيروز مثلا!

كما أنهن يسرفن فى استخدام العبارات والصيغ التى يعتقدن أنها تدرأ شر الحاسدات والحاسدين، مثل خمسة وخميسة، ودعوة المتحدثة والزائرة والصديقة إلى الصلاة على النبى عقب إبدائها رأيا فى شىء جديد اشترته الداعية، أو فى شخص على صلة بها كمولود جديد أو غير ذلك. وكثيرا ما يلجأ الناس إلى الحط من قيمة الشىء الثمين أو الادعاء بأن به عيوبا، أو إنكار ملكيتهم له وأنهم استعاروه من أصحابه. كما قد يدَّعون أنهم مصابون بأمراض، أو يعانون من مصاعب ومشكلات، لا لشىء إلا لكى يقوا أنفسهم حسد الحاسدين!

وللتعرف على الحاسد وتمييزه عن غيره تشيع بين الناس اعتقادات غريبة منها أن الحاسد أصفر العينين أو أزرقهما أو أن عينيه مدورتان، أو أن له طريقة معينة فى النظر إلى الناس والأشياء، أو غير ذلك من الصفات، أو أشكال السلوك، مثل

أنه لا يبدأ كلامه بالصلاة على رسول الله ﷺ أو أنه لايدعو للشخص بدوام النعم، ولا يتمنى له أن يبارك له الله فيها.

كذلك فإنهم يربطون بين الفضول والحسد، فالحاسد يسأل ويتحرى عن كل جديد حظى به معارفه أو أقاربه أو جيرانه، وما ذلك إلا لكى يحسدهم عليه!

وهناك حكايات كثيرة تروى عن الأثر السريع والمباشر للحسد تؤكد وجود علاقة سببية بينه وبين النتائج التى قد تكون مرضا أو إصابة أو حادثة أو خسارة مالية أو خلافا أو قطيعة أو شجارا أو غير ذلك، بحيث يتعذر على من يستمع إليها أن يشكك فى أنه كان للحسد دور فى حدوثها. أما إذا أصر على أن أسبابا أخرى هى التى لعبت دورا فيما حدث مستخدما فى إثبات ذلك كل ما لديه من أدلة وبراهين، فإن أقصى ما يمكن أن يصل إليه مع مجادليه هو أن يعترفوا للأسباب التى ساقها بدور ثانوى!. أما إذا أسقط فى أيديهم ووجدوا أنفسهم عاجزين عن تفنيد أدلته ودحض براهينه فإنهم يلجأون إلى الإيقاع به فى الحرج بأن يقولوا: هل تنكر أن الله تعالى تحدث عن الحسد فى القرآن فقال: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ أم ماذا؟ وبطبيعة الحال، فإن الرجل ينفى أنه ينكر ولكن.. ولا يتركونه ليكمل حديثه فيبين رأيه ويوضح وجهة نظره، ولكن يسارعون إلى القول ـ وهم يتنفسون الصعداء ـ: خلاص.. انتهى. وهم غالبا لا يكونون قد اطلعوا على تفسير هذه الآية لكى يعرفوا معناها. يقول الزمخشرى:[1] قول الله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[2]:

إن الله تعالى فى هذه السورة عرَّف بعض المستعاذ منه، ونكَّر البعض الآخر ومنه الحاسد، فقال: ومن شر حاسد؛ وذلك لأن كل حاسد لا يضر، وإنما يكون الضرر من البعض، كما أن هناك حسدا محمودا وهو الحسد فى الخيرات، ومنه قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لا حسد إلا فى اثنتين**». أما قوله تعالى: ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ فمعناه: إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه من تمنى زوال النعمة عن المحسود، أو تمنى الشر له؛ لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على

(١) المرجع السابق، المجلد الرابع، صفحة ٣٠١

(٢) ٥ الفلق

من حسده، بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره. وعن عمر بن عبد العزيز: لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من حاسد. وهذا يعنى أنه لايعتد بما يضمره الحاسد من تمنى زوال النعمة عن المحسود، وإنما المعول عليه فى الحسد هو الأثر الخارجى الناشىء عنه والمتمثل فيما يصدر عن الحاسد من أفعال يهدف بها إلى إلحاق الأذى بالمحسود. ويضيف الزمخشرى قوله: إن الاستعاذة من الغاسق والنفاثات والحاسد بعد قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾[1] وهو تعميم فى كل ما يستعاذ منه إنما يرجع إلى أن الله تعالى قد خص شر هؤلاء الثلاثة ـ ومنهم الحاسد ـ من كل شر؛ لسبب يرجع إلى خفاء أمر الحاسد وأن شره يلحق الإنسان من حيث لا يعلم، كأنما يغتال به. وقالوا: شر العداة المداجى، الذى يكيدك من حيث لا تشعر.

ولقد كان للتطورات الاقتصادية المتلاحقة والسريعة وما صاحبها من تغيرات اجتماعية دور هام فى إسراف الناس فى تفسير كثير من الأحداث التى تقع لهم فى حياتهم اليومية بالحسد. ومن أبرز التطورات الاقتصادية تلك التى ترتبط بسفر كثير من الناس إلى البلاد العربية وبخاصة البترولية منها للعمل مقابل أجور مرتفعة مكنتهم من ادخار مبالغ كبيرة، واقتناء أجهزة حديثة، وسيارات، وشراء عقارات، وغير ذلك، الأمر الذى ميزهم على غيرهم ممن هم على صلة بهم كالأقارب والأصدقاء والمعارف والجيران والزملاء فى العمل، فانتابهم خوف شديد من أن يحسدوهم، فلجأوا إلى الادعاء بإصابتهم بأمراض مختلفة ومعاناتهم من مشكلات كثيرة وعويصة، والشكوى من أن المال لم يعد عليهم إلا بالوبال على الرغم من قلته!. وصارت عادة: أنه إذا عاد أحدهم إلى بلده فى إجازة أو لأى سبب آخر وذهب الناس لزيارته أن يقابلهم هو وزوجته بالشكوى من المرض، أو بالحديث عن معاناتهم من كثير من المتاعب، بينما رائحة البخور تملأ البيت، والرموز الواقية من الحسد تبدو بوضوح على الجدران وفوق المناضد وعلى الصدور وحول المعاصم، وفوق كل ذلك نظرات الشك والريبة، وتعبيرات

(١) سورة الفلق: ٢

الوجوه التى تنم عن عدم الارتياح لوجود الزوار الذين لا يلبثون أن ينصرفوا نادمين لقيامهم بالزيارة.

وبمثل هذه الطريقة يتصرف كثيرون ممن كانوا فقراء ثم أثروا لسبب أو لآخر من الأسباب المختلفة التى طرأت نتيجة للتحولات الاقتصادية التى مرت بها مصر بعد حرب رمضان (أكتوبر ١٩٧٣). وللأسف الشديد فإن هؤلاء وهؤلاء أصبحوا يمثلون الطبقة العليا التى يقتدى بها الناس ويحاكونها فى أسلوب حياتها، ونمط تفكيرها، فشاع الاعتقاد بأن الحسد وراء كل ما يقع من أحداث غير سارة، وترك الناس الأخذ بالأسباب واستخدام العقل واللجوء إلى المنطق، فكان لذلك أسوأ الأثر فى النفوس، حيث انعدمت الثقة وحل محلها سوء الظن، واختفت الطمأنينة وحل محلها الخوف والريبة، فانعكس ذلك على صلة الرحم، وعلى الصداقة، وكل علاقة حميمة أخرى كانت تميز الحياة الاجتماعية وتضفى عليها دفئا وقوة. وإذا راجعت إنسانا دفعه خوفه من الحسد إلى التصرف على نحو غير لائق مع أقاربه أو أصدقائه قال لك: ألم يرد الحسد فى القرآن الكريم؟! وكأنه يكاد أن يتهمك بإنكار ذلك، بينما ينسى هو أن القرآن الكريم كما حذر من الحسد دعانا إلى التحدث عن نعم الله علينا ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾(١)

كما نبه إلى أن للبعض حقًّا فى أموال ذوى اليسار فقال: ﴿ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾(٢)

ودلنا على الطريقة التى نتقى بها الحسد وهى الزكاة والصدقة والإحسان إلى الناس، وتقديم العون لهم، وليس اكتناز المال أو التباهى به واستفزاز الفقراء بأشكال من الإنفاق الترفى والتبذير والإسراف فى الطعام والملبس والمسكن ومختلف صور الوجاهة الاجتماعية، والمظهرية الكاذبة، ثم الشكوى من الحسد والحاسدين، وإنكار نعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه.

---

(١) ١١الضحى

(٢) ١٩الذاريات

ومعنى ذلك أن ما يحدث الآن من كثير الناس من افتراض أن الناس تحسدهم على ما منحهم الله من نعم ويتمنون زوالها عنهم، ثم تصرفهم على النحو الذى بيناه، هو من الأخطاء الجسيمة التى يرتكبونها فى حق أنفسهم وفى حق الناس، والتى تسىء إلى التضامن الاجتماعى والتعاون بين المسلمين، وإلى الأخوة الإسلامية، وتشيع فى المجتمع الإسلامى جوا من الشك والريبة وسوء الظن وعدم الثقة. كذلك فإنه لا يصح نسبة الحسد إلى أحد إلا إذا كان قد صدر عنه فعل أو قول يصلحان دليلا على حسده. وبالنسبة للقول فإنه يشترط أن يكون صريحا فى دلالته على الحسد، فلا يصح اللجوء إلى التأويل أو تحميل الكلام أكثر مما يحتمل. وأما الفعل فلا يكفى أن يكون المتهم بالحسد قد تصرف على نحو ما، بل يجب أن تقوم علاقة سببية بين فعله والضرر الذى لحق بالمحسود، وليس كما يحدث الآن من نسبة كل ما يصيب الناس من أضرار أو ما يتهددهم من أخطار إلى من يزعمون أنهم حاسدون حتى كادوا أن يهملوا الأخذ بالأسباب ويوغلوا فى الخرافة إيغالا، وهو ما لايرضى الله ورسوله. فليس من المعقول أن يكون الحسد سببا فى الإصابة بالصداع لمجرد صدور عبارة من شخص ما يبدى فيها إعجابه بشعر شخص آخر. وكذلك آلام الظهر والمفاصل والأسنان. ناهيك عن الخلافات الأسرية التى لم يعمل أحد على خلقها!

ومن هنا نعرف لماذا أورد القرآن الكريم جريمتين من الجرائم التى كان الباعث عليها الحسد، وهو أن يبين للناس أن ضرر الحسد هو فيما يؤدى إليه من ارتكاب الحاسد للجريمة، أما غير ذلك فلا يعتد به.

فماذا بعد أن تم للقاتل ما أراد من إزهاق روح أخيه؟ كان هذا القتل أول قتل وقع من بنى آدم، ولما كان هذا النوع من الخلق ـ أى الإنسان ـ موكولا إلى كسبه واختياره فى عامة أفعاله، لم يعرف القاتل الأول كيف يوارى جثة أخيه المقتول التى يسوءه أن يراها بارزة ـ فالسوأة: ما يسوء ظهوره ـ ورؤية جسد الميت ـ ولا سيما المقتول ـ يسوء كل من ينظر إليه ويوحشه، فما بالنا وهذه هى المرة الأولى التى يفقد فيها إنسان حياته ويراه القاتل أمامه وقد أصبح جثة هامدة لاصوت لها

أو حركة، وهى التى كانت منذ برهة تفيض حياة وحيوية ونشاطا، يروح صاحبها ويجىء، يتكلم ويضحك، ويأكل ويشرب، يتمنى ويحلم؟!. لقد علمنا الله تعالى أن القاتل الأول تعلم دفن أخيه من الغراب، وهذا يدلنا على أن الإنسان فى نشأته الأولى كان فى منتهى السذاجة، وأنه لاستعداده الذى يفضل به سائر أنواع الحيوان كان يستفيد من كل شىء علما واختبارا، ويرتقى بالتدريج.

ذلك بأن الله تعالى بعث غرابا إلى المكان الذى هو فيه فبحث فى الأرض، أى: حفر برجليه فيها يفتش عن شىء، والمعهود أن الطير تفعل ذلك لطلب الطعام، والمتبادر من العبارة أن الغراب أطال البحث فى الأرض؛ لأنه قال «يبحث» ولم يقل بحث. والمضارع يفيد الاستمرار. فلما أطال البحث أحدث حفرة فى الأرض، فلما رأى القاتل الحفرة - وهو متحير فى أمر مواراة سوأة أخيه - زالت الحيرة واهتدى إلى ما يطلب - وهو دفن أخيه فى حفرة فى الأرض - يقول رشيد رضا[1]: إن هذا هو المتبادر من الآية. وقال أبو مسلم: إن من عادة الغراب دفن الأشياء، فجاء غراب فدفن شيئا فتعلم منه ذلك، وهذا قريب أيضا، ولكن جمهور المفسرين قالوا: إن الله بعث غرابين لا واحدا. وإنهما اقتتلا فقتل أحدهما الآخر، فحفر بمنقاره ورجليه حفرة ألقاه فيها. وروى أن قابيل لما قتل هابيل جعله فى جراب، ومشى يحمله فى عنقه مائة سنة، قاله مجاهد. وروى ابن القاسم عن مالك أنه حمله سنة واحدة، وقاله ابن عباس. وقيل حمله حتى أنتن لا يدرى ما يصنع به إلى أن اقتدى بالغراب. وقال قوم: كان قابيل يعلم الدفن، ولكن ترك أخاه بالعراء استخفافا به، فبعث الله غرابا يبحث التراب، أى: يهيله على هابيل ليدفنه، فقال عند ذلك: ﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِي ۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾[2] حيث رأى إكرام الله لهابيل بأن قيض له الغراب حتى واراه. ومصدر هذا الكلام الإسرائيليات، على أن مسألة الغراب والدفن لا ذكر لها فى التوراة. وفى هذه الروايات زيادات كثيرة لا فائدة لها ولا صحة. وفى الخبر عن أنس قال: سمعت

(١) المرجع السابق، صفحة ٢٨٦

(٢) سورة المائدة، من الآية: ٣١

رسول الله ﷺ يقول: «**امتن الله على ابن آدم بثلاث بعد ثلاث: بالريح بعد الروح** (يعنى ما يصيب الجثة من نتن بعد خروج الروح) **فلولا أن الريح يقع بعد الروح ما دفن حميم حميما، وبالدود فى الجثة؛ فلولا أن الدود يقع فى الجثة لاكتنزها الملوك، وكانت خيرا لهم من الدراهم والدنانير،** (كما يحدث الآن فى المومياوات) **وبالموت بعد الكبر، وإن الرجل ليكبر حتى يمل نفسه ويمله أهله وولده وأقرباؤه، فكان الموت أستر له**»[1].

وقد أورد الجاحظ رأيا فى اختيار الله تعالى للغراب ليبعث به لكى يبحث فى الأرض لِيُرِىَ قابيل كيف يوارى سوأة أخيه، وهو أن الله إنما اختاره من بين جميع الطير، على الرغم من سوء حاله وسقوطه، ليجعل ذلك دليلا على حسن حاله وارتفاع مكانه. وأنه كلما كان المُقَرَّعُ به أسفل أتت الموعظة فى ذلك أبلغ. ولو كان فى موضع الغراب رجل صالح، أو إنسان عاقل، لما حسن به (قابيل) أن يقول: يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا العاقل الفاضل الكريم الشريف؟! وإذا كان دونا وحقيرا فقال: أعجزت وأنا إنسان أن أحسن ما يحسنه هذا الطائر، ثم طائر من شرار الطير، وإذا أراه ذلك فى طائر أسود محترق، قبيح الشكل، ردىء المشية، ليس من بهائم الطير المحمودة، ولا من سباعها الشريفة، وهو بعدُ طائر يتنكد به ويتطير منه، آكل جيف، ردىء الصيد. وكلما كان أجهل وأنزل كان أبلغ فى التوبيخ والتقريع[2].

ولما رأى القاتل الغراب يبحث فى الأرض، وتعلم منه سنة الدفن، وظهر له من ضعفه وجهله ما كان غافلا عنه ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾[3]

ياويلتا: كلمة تحسر وتلهف، وهى تقال عند حلول الدواهى والعظائم. وفى لسان العرب: والويل: حلول الشر. والويلة: الفضيحة والبلية. وقيل: هو التفجع. وإذا قال القائل: ياويلتاه فإنما يعنى وافضيحتاه. والألف فى الكلمة بدل

(١) القرطبى، المرجع السابق، صفحة ١٤٢

(٢) كتاب الحيوان، المجلد ٣، صفحة ٤١١

(٣) المائدة: ٣١

ياء المتكلم، إذ الأصل ياويلتى، والنداء للويلة لإفادة حلول سببها الذى تحل لأجله، حتى كأنه دعاها إليه وقال: أقبلى فقد آن أوان مجيئك. فهل بلغ من عجزى أن كنت دون الغراب علما وتصرفا؟ والاستفهام للإقرار والتحسر. وأما الندم الذى ندمه فهو ما يعرض لكل إنسان عقب ما يصدر عنه من الخطأ فى فعل فعله إذا ظهر له أن فعله كان شرا له لا خيرا. وقد يكون الندم توبة إذا كان سببه الخوف من الله تعالى والتألم من تعدى حدوده، وقصد به الرجوع إليه، وهذا هو المراد بحديث «**الندم توبة**»[1]، وأما الندم الطبيعى فلا يعد وحده توبة، فالتوبة من إحداث البدعة لا تنجى مبتدعها من سوء أثرها. وفى حديث ابن مسعود فى الصحيحين مرفوعا: «**لاتقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم كفل** (نصيب) **من دمها؛ لأنه أول من سن القتل**».

ومن النتائج الهامة التى أسفرت عنها هذه الجريمة البشعة ما فرضه الله تعالى على بنى إسرائيل، وذلك فى قوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[2]

أى أنه بسبب ذلك الجرم والقتل الذى ارتكبه أحد هذين الأخوين ظلما وعدوانا ـ لا بسبب آخر ـ كتبنا وفرضنا على بنى إسرائيل أن من قتل نفسا بغير سبب القصاص الذى شرعه الله تعالى فى قوله الآتى فى هذه السورة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾[3]

أى من قتل نفسا يقتل بها جزاء وفاقا. أو بغير سبب الإفساد فى الأرض بسلب الأمن، والخروج على أئمة العدل، وإهلاك الحرث والنسل، كما تفعله العصابات المسلحة لقتل الأنفس ونهب الأموال، أو إفساد الأمر على ذى السلطان المقيم لحدود الله ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ لأن الواحد يمثل النوع فى جملته،

(١) رواه أحمد، والبخارى فى تاريخه، والحاكم، والبيهقى، ورمز له فى الجامع الصغير بالصحة.
(٢) المائدة: ٣٢
(٣) ٤٥ المائدة

فمن استحل دمه بغير حق يستحل دم كل واحد كذلك؛ لأنه مثله، فتكون نفسه ضارية بالبغى لا وازع لها من ذاتها ولا من الدين ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أى ومن كان سببا لحياة نفس واحدة ـ بإنقاذها من موت كانت مشرفة عليه ـ فكأنما أحيا الناس جميعا؛ لأن الباعث له على إنقاذ الواحدة ـ وهو الرحمة والشفقة ، ومعرفة قيمة الحياة الإنسانية واحترامها، والوقوف عند حدود الشريعة فى حقوقها ـ تندغم فيه جميع حقوق الناس عليه، فهو دليل على أنه إذا استطاع أن ينقذهم كلهم من هلكة يراهم مشرفين على الوقوع فيها لا ينى فى ذلك ولا يدخر وسعا. ومن كان كذلك لايقصر فى حق من حقوق البشر عليه. ويلزم من ذلك أنه لوكان جميع الناس أو أكثرهم مثل ذلك الذى قتل نفسا واحدة بغير حق لكانوا عرضة للهلاك بالقتل فى كل وقت، ولو كانوا مثل ذلك الذى أحيا نفسا واحدة احتراما لها، وقياما بحقوقها، لامتنع القتل بغير الحق فى الأرض، وعاش الناس متعاونين، بل إخوانا متحابين متوادين. فالآية تعلمنا وحدة البشر، وحرص كل منهم على حياة الجميع، واتقاءه ضرر كل فرد؛ لأن انتهاك حرمة الفرد انتهاك لحرمة الجميع، والقيام بحق الفرد من حيث إنه عضو من النوع، وما قرر له من حقوق المساواة فى الشرع، قيام بحق الجميع.[1] ومن المقارنة بين ما كتبه الله على بنى إسرائيل فى هذه الآية وبين ما ورد فى التوراة:[2] لما قتل قايين هابيل لعنه الرب وطرده عن وجه الأرض، فندم واسترحم الرب، وخاف أن يقتله كل من وجده (فقال له الرب: لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه، وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده، فخرج قايين من لدن الرب وسكن فى أرض نود شرقى عدن). وهذا من ضمن أكاذيبهم التى أدخلوها على التوراة، فما كان الله تعالى ليغفر لقابيل جنايته العظمى فضلا عن أن ينتقم ممن يقتله سبعة أضعاف، وإنما هى شريعة

(١) رشيد رضا، المرجع السابق، صفحة ٢٩٩

(٢) تكوين، إصحاح ١٥

القصاص التى فرضها الله تعالى على بنى إسرائيل يوم أن كانوا هم أهل الكتاب الوحيدون فى هذه الدنيا، وجعلها قاعدة عامة لا استثناء عليها لأى إنسان مهما كانت مكانته فى المجتمع. فما بالنا وقد قتل ابن آدم أخاه عن إصرار وبدون أن يكون قد أساء إليه؟!

وهكذا نجد أن قصة هذه الجريمة قدمت لنا الكثير من العظات والعبر، التى منها: أن الحسد يكون بين الإخوة، ربما بأكثر مما يكون بين غيرهم، وأنه قد يؤدى إلى الجريمة مما يستوجب أن يكون الإخوة الذين يستهدفون لحسد إخوتهم على حذر فى التعامل معهم، وأن يتجنبوا ـ بقدر ما يستطيعون ـ المواقف التى تنذر بصدام لا تحمد عواقبه، فلقد رأينا كيف أن محاولة هابيل لاحتواء غضب أخيه الناشىء عن الحسد لم تنجح فى تهدئته فأصر على قتله دون ذنب جناه. كذلك فإن الإخوة الذين يحسدون إخوتهم ويفكرون فى الإساءة إليهم إرضاء لمشاعر الحسد التى تفترسهم، عليهم أن يتروَّوْا فيما يفكرون فى الإقدام عليه من أفعال ضد إخوتهم، وليتذكروا ما حدث للأخ القاتل الذى لم تفده الجريمة بشىء، وكان قد ظن أنه باختفاء أخيه ستطيب له الحياة وينال ما كان يظن أن أخاه يحصل عليه دونه، ولكن تبين له خطأ تفكيره وسوء تدبيره فخسر الدنيا والآخرة.

ومما تعلمناه من هذه القصة أن الله تعالى علم الإنسان ـ ويعلمه ـ كل ما فيه مصلحة له. فلما قتل قابيل هابيل ـ الذى كان أول شخص يموت من البشر ـ لم يدر كيف يتصرف فى جثة أخيه، فبعث الله إليه الغراب ليريه ما يجب عليه أن يفعله، فلما رأى ذلك أدرك مدى ضآلته وجهله ـ وهو الإنسان ذو العقل ـ أمام الغراب الذى يعد من أقبح أنواع الطيور وأقلها ذكاء!